

## خواطر حول نشأة القصة في الأدب العربي الحديث

العالي تحته فيها على مزيد من الإصلاحات . فاستجاب السلطان عبدالعزيز لهذه المذكرة وأجرى إصلاحات جديدة في القوانين والمعارف . وفي سنة ١٨٦٩ صدرت مجلة الأحكام التي أعدها العالم المؤرخ القانوني أحمد جودت باشا ، ومن أهم ما جاء فيها القوانين المدنية والمحاكمات النظامية . ولا حاجة إلى القول بأن هذه التنظيمات الإصلاحية أحدثت انقلاباً عظيماً في الأمور الإدارية والقضائية وأثرت تأثيراً عميقاً في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة في المدن التي كانت تضم جماعات كبيرة من رعايا الدولة المسيحيين ، مثل مدينة بيروت التي كان موقعها البحري ييسر لها الاتصال بالبلاد الأجنبية والاتجار معها .

وفي سنة ١٨٦٠ حدثت تطورات هائلة في الاقتصاد العالمي ، أدت إلى تطور عظيم في التجارة بين الدول . ففي تلك السنة أخذت التجارة تنتقل من الطور البري إلى الطور البحري . وتم توقيع المعاهدة التجارية بين فرنسا وإنجلترا ، فانهى عهد الحماية الاقتصادية التي كانت تعيق سبل التجارة ، وبدأ عهد جديد من الحرية الاقتصادية والعلاقات السلمية بين الدول الأوروبية .

وفي السنة المذكورة دخلت جيوش الدول الأوروبية مدينة بكين وفتحت أبواب الصين للتجارة العالمية ، واستقرت فرنسا في عاصمة الهند الصينية ، واحتلت إنجلترا مضائق الملايو ، وشقت روسية طريقها نحو المحيط الهادئ من مرفأ فلاديفستوك ، وأدى كل ذلك إلى اتساع نطاق التجارة العالمية .

وفي الوقت نفسه أخذت تتوالى الاختراعات الخاصة بوسائل المواصلات ، وخاصة المواصلات البحرية . ومع أن السفن التجارية اخترعت قبل سنة ١٨٦٠ بمدة طويلة ، غير أنها لم تستطع أن تلعب دوراً كبيراً في النقل البحري ، لأنها كانت كثيرة التكاليف ، فظلت واسطة لنقل الركاب دون البضائع ، وبقيت السفن الشراعية الوسيلة الأولى للنقل التجاري . ولكن بعد سنة ١٨٦٠ حدث تقدم كبير في صناعة السفن التجارية فعممت طريقة استعمال الرفاصات الخلفية عوضاً عن الدواليب الجانبية كما حلت المكابس محل النقلات لنحويل الحركة المتناوبة إلى حركة مستديمة . وتقدمت صناعة الفولاذ تقدماً كبيراً أمكن منه بناء السفن التجارية الفخمة من الفولاذ عوضاً عن الخشب . كل هذه الاختراعات والتحسينات ساعدت على تضخيم أحجام السفن وزيادة في سرعتها ، وتقليل نفقاتها ، مما جعلها عاملاً هاماً في ازدهار التجارة البحرية ازدهاراً سريعاً وفتح عهداً للأسواق العالمية .

في مثل هذه الأيام قبل مائة عام وسبعة ، كان شباب لبناني لم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره يحمل إلى المطبعة فصلاً من قصة وأغصية تدور أحداثها بين لبنان وسورية ، لتنتشر في العدد الأول من أول مجلة ثقافية في العالم العربي ، وهي مجلة « الجنان » . كان هذا الشاب هو سليم البستاني ابن المعلم بطرس البستاني طليعة المجددين في نهضة لبنان الثقافية في القرن التاسع عشر : ولم يكن ذلك الشاب وهو يصحح تجارب قصته تلك يدرك أنه بهذا العمل يرود فناً عظيماً من فنون الأدب ، أصبح اليوم أكثر الفنون الأدبية انتشاراً ورواجاً في الشرق والغرب .

ولكن هذا العمل الذي أقدم عليه البستاني الابن لم يكن حدثاً عفويًا ، ساقته إليه الرغبة في الترفيه عن قراء مجلته الجديدة ليضمن أقبالهم عليها ، ولم تكن القصة نباتاً شيطانياً استوى ساقه فوق الأرض العربية فجأة ، واطلته الأجواء العربية وهيأت له أسباب التقوى والنماء ، بل كانت نمة ظروف اجتماعية وثقافية وأدبية تقتضي ظهور هذا الفن ونهيه له سبل الانتشار ، هذه الظروف يمكن إجمالها في ما يلي :

- (١) بروز الطبقة الوسطى التجارية والمهنية التي تتطلب أدباً يعبر عن ثوقها ويصور آمالها ومطامحها .
- (٢) ظهور فئة من المثقفين الذين درسوا في المدارس والكليات الحديثة واطلعوا على العلوم والآداب الغربية فتغيرت أمزجتهم وتبدلت نظرتهم إلى الحياة .
- (٣) ظهور المطبعة التي ساعدت على انتشار الكتب المترجمة والمؤلفة ، وعلى إصدار الصحف والمجلات .

كان النظام الاقتصادي اللبناني حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتمد على الزراعة أولاً ثم على المشروعات التجارية الصغيرة . ولكن في سنة ١٨٥٦ حدث تطور هام في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها ، إذ أصدر الخليفة العثماني ، عقب هزيمة جيوشه في حرب القرم وسقوط حصن سيستبول سنة ١٨٥٤ ، خطأ هميونياً حاول أن يظهر فيه حسن نيته تجاه القوى الأوروبية وذلك بالمساواة بين رعايا الدولة من مسلمين ومسيحيين . ولضمان هذه المساواة أدخلت تنظيمات عديدة من أهمها التنظيمات القضائية التي أدت إلى إنشاء المحاكم النظامية الحديثة من مدنية وتجارية وبحرية وجنائية . ووضعت قوانين عصرية ، على نمط القوانين الأوروبية تشمل أحكامها جميع الدول من مسلمين ومسيحيين دون تمييز . وفي سنة ١٨٦٧ وجهت الدول العظيمة الثلاث ، فرنسا وإنجلترا والنمسا مذكرة إلى الباب

موضوعها « الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والاخرنجية ». وفي سنة ١٨٧٠ ظهرت مجلة الجنان أولى المجلات الثقافية في العالم العربي ، وكان يتولى تحريرها سليم البستاني ، باشراف من ابيه . هذه المجلة تعبر بما فيها من قصص ومقالات عن قيم الطبقة الوسطى واخلاقياتها ومطامحها ومشكلاتها . فاذا تصفحنا مقالاتها وجدنا انها تعرض اشد الحرص على عرض فضائل التمدن والتهديب والسعادة والجد والاجتهاد وادب الزيارات والمعاملات وقضايا التجارة والصناعة والعلوم المفيدة . لقد كان دور هؤلاء المثاليين شبيها بدور المثاليين الانجليز في القرن الثامن عشر الذين مهدوا لظهور القصة الانجليزية الواقعية . وكان من ابرز هؤلاء المثاليين رتشارد ستيل ( ١٦٧٢ - ١٧٢٩ ) ، وصديقه جوزيف ادسون ( ١٦٧٢ - ١٧١٩ ) ودانيال ديفو ( ١٦٦٠ - ١٧٣١ ) ، وكانوا يعالجون القضايا العامة التي تعرض للمجتمع في مختلف مراحل تطوره ، ومنها تلك الموضوعات التي تدور حول بعض الصفات الخلقية كالتواضع والحلم والسماحة والكرم والفرور والجشع ، او حول الملاقاة الاجتماعية كالصداقة والزواج وادب الحديث وحسن العشرة والتربية الصالحة وما الى ذلك ، او حول الموضوعات الطارئة التي تجد في المجتمع عند تغير بعض العادات والتقاليد والازياء كالحفلات التنكرية والمبارزات واستنشاق السعوط وتطور ازياء النساء والرجال وشيوع قراءة الصحف والجلوس على المقاهي وما الى ذلك .

الى جانب الطبقة الوسطى التجارية ظهرت الطبقة الوسطى المهنية ، وقوامها من اطباء والصيدالة والمهندسين والعلميين الكتاب والموظفين الذين تخرجوا من مدارس محمد علي في مصر او من مدارس البشريين الانجليز والكاثوليك في بيروت . كانت هذه الطبقة تنتمي الى الحالة الثالثة بحكم موقعها الاجتماعي ، وانتمائها العاليية ، وكانت فضلا عن ذلك تمثل النخبة المثقفة في صفوف الطبقة الوسطى . وقد غدت هذه الطبقة مع الزمن راعية الآداب والفنون والمستهلك الاول لما كانت تصدره المطابع في لبنان ومصر من صحف ومجلات وكتب مترجمة او مؤلفة . فمن صفوفها خرج المؤلف الاول والمترجم الاول والمسرحي الاول والقص الاول والقاري والقاريء الاول . ولذا فلا بد من ان تتجه حركة التأليف والنشر خارج النطاق الرسمي الى تلبية حاجات ابناء هذه الطبقة وبنائها ، والى مجاملتها لتحقيق رغباتها وتصوير مشاعرها والتعبير عن قيمها .

وقد كان من شأن الثقافة الحديثة التي لقتها ابناء هذه الطبقة ان تغير امزجتهم وان تجعلهم يؤمنون بالعلم وتطبيقاته ويتملقون بالحقائق الثابتة بالبرهان العلمي او الحجج المنطقية ، ولذا لم يعد من الممكن ان يقتنعوا بما كان يقدمه لهم الادب الشعبي من مغامرات غتسر وحرور ابي زيد الهلالي ورحلات سيف بن ذي يزن في البراري والقفار وتقلبه بين ايدي المردة والسحرة . كل هذا غدا ضربا من الاوهام التي لا تستسبها عقولهم الحديثة ، فكان لا بد لارثائهم من ظهور ادب واقعي بالمعنى الحديث للواقعية الذي يتمثل في مؤلفات دنكارت ولوك وتوماس ريد ، وفي ممارسات الواقعيين الاول من انجليسز وفرنسيين امثال رتشاردسون وفيلدنغ وسموليت وبلزاد وستندال وفلوبير .

وكان لا بد لهذا الادب الجديد من توافر الوسائل المساعدة التي تيسر على نشره وتعميمه بين القراء . وقد كانت المطبعة التي ظهرت في وقت مبكر من القرن الماضي هي وسيلة النشر ، وكانت الصحيفة الشعبية التي ظهرت في العقد السادس من القرن الماضي ، هسي وسيلة التعميم والرواج ، معززة في ذلك ما كان يصدر عن المطابع من كتب مترجمة او مؤلفة .

لقد عمدت اول مجلة ثقافية في العالم العربي ، وهي الجنان الى اصطناع القصص وسيلة للترفيه عن القراء وافادتهم ووعظهم . فخصصت في آخر كل عدد من اعدادها بابا سمته باب الفكاهات ، كانت تنشر

هذه العوامل وغيرها ساعدت على ازدهار مدن الموانئ ومنها بيروت . وعقب الغنة الطائفية التي اعدت الدول الاجنبية لنشوبها في جبل لبنان وفي سورية سنة ١٨٦٠ ، اخذ اصحاب الرساميل الفصحة يهجرون قراهم ويتجهون الى بيروت . فازداد عدد سكان المدينة . ومن العوامل التي دفعت باهل الجبال الى السكنى في المدن زيادة المثقفين زيادة عالية والرغبة الملحة في رفع مستوى العيش والشعور بان مجال العمل والكسب في المدن افضل واوسع مما هو عليه في القرى فاصبحت مدن الساحل الصغيرة ذات الازقة والمعابر التي يسيرها الصيبر مدنا كبيرة عصرية - فمدينة بيروت مثلا ، التي كان عدد سكانها عند مستهل القرن التاسع عشر خمسة الالف نسمة ، اصبح عند نهاية القرن مائة وعشرين الفا ، وظهر في هذه المدن الناشئة جماعة من التجار المصريين الاغنياء الذين استطاعوا تدريجيا ان يقبضوا على دفة الاقتصاد الوطني . واصبح هؤلاء التجار الاغنياء الاقوياء مع جماعة المحامين والاطباء والاساتذة الذين تخرجوا من مدارس غربية او مدارس تسيير على النهج الغربي يشكلون طبقة ثالثة جديدة في البلاد « طبقة تنف بين الامراء والاطبايعين والاكليروس ، من جهة ، وفتة تتألف من الفلاحيين والعمال » . هذه الطبقة هي الطبقة البرجوازية التي اصحت تشكل عصب المجتمع البيروتي في النصف الثاني من القرن الماضي . هذه الطبقة الجديدة ، بنشاطها التجاري الواسع القائم على توزيعها البضائع المستوردة في بيروت وفي مدن الداخل في سورية ، لفتت اليها انظار البيوتات التجارية الاوروبية فانشىء بنك انجليسزي قبل سنة ١٨٥٨ . ثم انشئ البنك العثماني الذي ترك لنا رئيس قسم المحاسبة فيه ، لوسى فارلي ، اصدق وصف لنمو بيروت التجاري في السنوات الثلاث التي تبعت عهد التنظيمات . وفي سنة ١٨٦٣ انتهت شركة فرنسية ، بعد اعمال دامت خمس سنوات ، شق طريق العربات بين بيروت ودمشق - اول طريق من نوعها في البلاد . وانشأت الشركة خط مواصلات لعربات الدليجاتس التي يجرها عدد من العبياد وتسير مرتين يوميا بين بيروت ودمشق . واصبحت هذه الطريق بين بيروت ودمشق خطا رئيسيا لنقل البضائع بين البلدين وطريقا تتفرع منه الطرقات الثانوية شمالا ويمينا فتربط بين القرى والمدن . وفي سنة ١٨٦٧ اصدر السلطان فرمانا يسمح بموجبه للاجانب ان يقتنوا ، لأول مرة في تاريخ السلطنة ، املاكا مما يشجع الاجانب على الإقامة في بيروت واقتناء العقارات فيها .

كل هذه التطورات التي حدثت في فترة لا تتجاوز العشرينات ، جعلت من بيروت مركزا تجاريا هاما ، فتجاوزت وارداتها من الدول الغربية سنة ١٨٥٧ ، المليون من الجنيهات الاسترلينية وكادت صادرتها تبلغ المليون ، لمجموع من السكان لا يتجاوز المئة الف .

هذه الطبقة الناشئة من التجار الاساتذة كانت تتطلب ظهور ادب جديد ينير لها السبيل في مشكلاتها الاقتصادية ويعلمها اصول التصرف في معاملاتها التجارية والمنزلية وينتقد افعالها على العادات الاخرنجية ويحثها على حب الوطن وتوفير اللفة بين ابناءه . وقد اسهمت الصحف والمجلات التي ظهرت في تلك الفترة في توفير هذا الادب الاجتماعي النفدي ، فكانت حديقة الاخبار التي اصدرها خليل الخوري في مطلع سنة ١٨٥٨ ونغير سوريا التي اصدرها بطرس البستاني سنة ١٨٦٠ والجوائب التي اصدرها فارس الشدياق سنة ١٨٦١ والجنة والجنية اللتين اصدرهما المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٧٠ و١٨٧١ على التوالي تنشر المقالات الاجتماعية التي تشرح معنى التمدن الصحيح ، وتصور قيم الطبقة الوسطى التجارية كاليقظة والحد والاعتدال والامانة والصدق وحسن المعاملة . وقد اشتهر من بين هؤلاء الكتاب فارس الشدياق بنماجه البشرية التي كان ينشرها في جريدته « الجوانب » في مقالات بعنوان « في ادب المدرس والنفس » ، وفي « اللهو والبطالة » و « التمدن » وما اليها . وقد اوجز هذا الاتجاه المعلم بطرس البستاني في محاضرة القاها سنة ١٨٦٩

فيه اجزاء من قصة مسلسل او افصولة موضوعة او مترجمة . وعلى صفحات الجنان نشرت قصص سليم البستاني الاجتماعية الست ، وفضصه التاريخية الثلاث ، كما نشرت فصنا نعمان المساطلي العمشقي « مرشد وفتنة » و « انيس » . هذا فضلا عن الافايفص المترجمة والموضوعة التي نشرت فيها . وقد عدت الجنان نموذجاً للصحف والمجلات العربية في هذا الصدد ، فنجد الاهرام والمقتطف واللطائف والهلال والضياء والمشرق تخصص في اعدادها بابا ثابتاً للقصة . وفي الوقت نفسه اخذت تصدر بعض المجلات القصصية المتخصصة ومنها في بيروت : « سلسلة الفكاهات في اطيب الروايات » و « ديوان الفكاهة » و « الراوي » و « اللطائف الالهية » و « الانيس » و « الروايات العصرية » و « المسامرات السورية » و « مسامرات الشعب » . وفي مصر صدرت « حديقة الادب » و « سلسلة الفكاهات » و « منتخب الروايات » و « الفكاهة » و « سلسلة الروايات » و « الروايات المصرية » و « حديقة الفكاهة » و « مسامرات النديم » و « مسامرات الشعب » وغيرها .

وقد عنيت هذه الصحف والمجلات بنشر القصص المترجم في المقام الاول ، حتى غدا معظم آثار مشاهير كتاب القصة الشعبية في فرنسا في القرن التاسع عشر مسرا للقارئ العربي في ترجمات تتراوح بين القوة والضعف والامانة والتصرف . واصبحت اسماء برناردان دي سان بيير وهنري بوردو وشانوبريان وفرنسوا كوبيه وفرنسوا دي كوربل وببير ديكورسيل والكسندر دوما الاب واميل غابريو وفكتور هيجو مالوفة بين القراء العرب في القرن الماضي .

ولكن هذا القصص المترجم كان ذا اثر سيء على ذوق جمهور القراء ، اذ كما كانت غاية المترجمين واصحاب الصحف اجتذاب القراء بمادة ترفهية مسلية ، لم يتحروا في اختيار النماذج الجيدة من القصص ، ولم يحرصوا في ترجمة ما اختاروا على الامانة والدقة ، ولم تكن اساليب اكثر المترجمين من الاساليب الجيدة . ولذا اخفى صوت بلزك وستندال وفلوبير الانساني الصادق ، بين جمعومات الرومانطيين ولهجاتهم الخطابية المجلجلة . وظن القارئ ان هذا الادب المشوه الذي يقرأه هو القصة الحقيقية . وكان لا بد من عملية تصحيح للقواعد وتقويم للاذواق ، ظهرت اولا في ما ترجمه المقتطف وما ألفه جورج زيدان وفرح انطون ، ثم في اليقظة الثانية للواقعية على يدي هيكل والحكيم والمزاني .

ذكرت في ما سبق الظروف الاجتماعية والثقافية والادبية التي اقتضت ظهور هذا الفن الجديد ، وهيأت له سبل الانتشار والرواج . ولكن ما هي خصائص هذا الفن الجديد ، وبم تمتاز القصة الحديثة عن الرومانسيات التي تربي عليها ذوق القراء والمستمعين العرب في القرون الوسطى . بم تختلف قصة سليم البستاني الواقعية عن قصة حرب بني شيبان مع كسرى نوشروان وقصة « البراق » وسيرة عنتر وسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة بني هلال وسيرة الظاهر بينبرس وسيرة الاميرة ذات الهممة ؟

يقسم التاريخ الادبي العصور التي مر بها الادب القصصي الى ثلاثة :

- (1) عصر الملاحم الشعرية والنثرية من هوميروس حتى القرن الثاني عشر .
- (2) عصر الرومانس من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر .
- (3) عصر القصة من القرن الثامن عشر حتى اليوم .

وهذه العصور توازي ثلاث مراحل من مراحل تطور الحياة الانسانية ، وهي المرحلة الحربية ( عصر الابطال وانصاف الالهة ) ، والمرحلة البلاطية ( عصر الفرسان ) ، والمرحلة التجارية ( عصر البرجوازية ) . والقصص العربية القديمة تنتمي الى عصر الرومانس وتطلق الرومانس على انواع مختلفة من قصص القرون الوسطى التي حلت محل ملاحم الابطال ، وخاصة في فرنسا ، وفي البلدان التي

تأثرت بالنموذج الفرنسي للرومانس وتخلت عن اشكالها وموضوعاتها الملحمية تحت تاثير هذه الانماط الجديدة . وقد ظهرت الرومانس الاوروبية في العصور الوسطى المتأخرة ، من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر . ولنتذكر ان الحروب الصليبية بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر هيأت للشرق والغرب ان يلتقيا التقاء حضاريا وثقافيا فضلا عن اللقاء الحربي . ولا ريب ان الرومانسيات العربية التي ظهرت بين القرنين الثالث والسابع للهجرة كانت ذات اثر فعال في تغيير الذوق الادبي الاوروبي وتوجيهه نحو هذا الفن الجديد .

وهذا ما شهد به احد كبار المستشرقين وهو الاستاذ جب في بحثه الذي نشره في « تراث الاسلام » . وقد تميزت هذه الرومانسيات ، على اختلاف طبقاتها وانواعها بما يلي :

(1) انها نتاج مدرسة رومنطيقية ، بالمعنى النقدي لهذه الكلمة ، اي انها لم تكن نتاجا عفويا لعقولة ساذجة وخيال جامع كالحكايات والسير التي يتداولها العامة ، بل هي نتاج عقلية نقدية متسورة تبحث عن مشاعر جديدة واساليب مبتكرة في التعبير الادبي . ولم يكن هؤلاء الرواد اقل فطنة وبراعة من اتباعهم الذين استعاروا منهم حكايات الجن والسحرة والفايات الخيفة والقلاع المسحورة من كتاب الرومانس القوطية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

(2) انها عنيت بتصوير عاطفة الحب : فلم تقتصر على تصوير المغامرات العجيبة ، بل انها الى جانب المبارزات العنيفة بين الفرسان بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الشياطين والمردة ، كانت تعني بتحليل عاطفة الحب ، وتصوير سلوك الحبيب تجاه محبوبته ، ومتى يكون الحب مباحا ومتى يكون غير مباح ، وما هي الصفات التي ينبغي ان تتوافر في المحب الفارس وما الى ذلك .

(3) العناية بوصف المخاطر والغرائب : كان هذا الحب الذي تعقد اواصره في اجواء الفرسان والمحاربين يجتاز بالضرورة صروبا من العقبات والصعاب ، وتلازمه انواع من المخاطر والمغامرات . يضاف الى ذلك حرص الكاتب على تنوع الاحداث وتلوين المواقف وعلى تصوير الامكنة البعيدة الغربية ، وقد كان الشرق معينا لا ينضب لهذه الغرائب التي عاد بها الفرسان والحجاج من البلاد المقدسة ، ويكفي ان نذكر هنا رحلة شرلمان الى القسطنطينية وما لقي فيها من عجائب الشرق وغرائبه .

(4) وصف مظاهر الثراء والفخامة : واجواء الف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن والظاهر بينبرس تحتوي على صروب مختلفة من البلخ والفخامة والثراء ، سواء في البناء او في الرياش او الملابس .

وفي القرن السابع عشر بدأت موجة الرومانس تنحسر ليحل محلها نوع من القصص جديد فيه رواسب من الرومانس ومخاطراتها وعجائبها ، وفيه مواءمة رمزية ووصف للحب البلاطي الى جانب الحوادث المسلية المستمدة من حياة الواقع . ويتمثل هذا الادب الانتقالي في قصة « دون كيشوت » لسرفانتس وقصة « سياحة الحاج » لجون بنيان وقصة « اميرة دي كيلف » لمدام لافاييت . كانت هذه القصص آخر صلة تصل بين عهد الرومانس وعهد القصة الواقعية التي بدأت في القرن الثامن عشر ، كما كانت الرومانس نفسها حلقة متوسطة بين مثالية الملحمية وواقعية القصة الحديثة . اما القصة الاولى ، « دون كيشوت » فهي تمثيل رائع لحيرة الانسان بين المثال والواقع ، ممثلين في دون كيشوت وتابعه سانتوبانشا . فالاول فراء كثيرا من رومانسيات الفرسان حتى اصبح عقله مستودعا لصور الميازات وتقاليد الفروسية والحب البلاطي ، فخطره له ذات يوم ان يقلد هؤلاء الفرسان الذين فراء عنهم في كتبه وان يبعث عهد الفروسية بعد فوات الاوان . اما تابعه سانتو بانشا فانه انسان بسيط ملتصق بالارض يرى الاشياء في حقيقتها الواقعية . ويقاس كل شيء بمقياس

أفراد معينون في ظروف خاصة محددة ، لا أشخاص نموذجيون يتحركون في بيئة عامة متشعبة يحددها لهم العرف الأدبي السائد . هذا التغيير كان يشبه رفض الكليات والتوكيد على الجزئيات فسي الفلسفة الواقعية الجديدة .

ومن الناحية الفلسفية تحول الاتجاه التخصيصي لتفهم الشخصية الى مشكلة تحديد الإنسان الفرد . ومنذ اعطى ديكرت الأهمية العظمى للحركات الفكرية الدائرة في شعور الفرد ، اثارته المشكلات الفلسفية المتصلة بتحديد الهوية الشخصية اهتماما كبيرا بين الفلاسفة . وهذا ما تمكسه بحوث لوك وبطلر وبيركلي وهيوم وريد في إنجلترا . وهنا يبدو التقارب بين ممارسات القصاصين الأول وتقاليد الفكر الواقعي المستحدث ، في أجلى صورة : فقد اهتم كلاهما بالفرد ، اهتماما فاق كل اهتمام سابق ، وخاصة في تحديد أشخاص الافراد باعطائهم اسماء حقيقية كاملة تشي بانتمائهم الى حياة البشر العاديين . فالاسم الشخصي تمييز خطابي صريح عن هوية الشخص الذي يحمله . ولقد كانت الشخصيات في الأعمال الأدبية السابقة ، تعطي اسماء تشعرونا بان المؤلف لم يكن معنيا بتحديد الشخصية تحديدا خاصة فرديا - كانت في الأغلب أسماء تاريخية او ذات سمة تاريخية ، مستمدة من الأدب الكلاسيكي . فالاسماء عند رابليه وسنوي وبنيان كانت خلوا من الدلالات او ذات دلالات ومعان خاصة . وكانت عند كورني ورأسين اسماء قديمة مما تردد في الأدب الكلاسيكي ، وكلاهما لا يوحي لنا بوشيجة تصله بالحياة المعاصرة . كذلك كان من عادة الكتاب السابقين الاكتفاء بالاسم الأول بينما عمد كتاب القصة الى تحديد الشخصية بالاسم الكامل : الاسم الأول واسم العائلة . وهذه حقيقة تبدو لنا من العادي المألوف اليوم بينما كانت في ذلك الحين خطوة واسعة نحو الاقتراب من الواقع .

وقد عرف لوك وهيوم الشعور بالشخصية بأنه شعور بالهوية في اطار الزمن ، اي أننا لا نحدد ذاتنا ولا نعرف العلة والمعلول او السبب والنتيجة الا اذا كانت لدينا ذاكرة زمنية . وقد حاول كتاب القصة الحديثة من رشاردسون حتى بروست أن يعرفوا الشخصية القصصية من خلال شعورها بالماضي والحاضر . ومسألة العبد الزمني لها اثر آخر : فالافكار تصبح عامة مطلقة اذا جردت من اطارها الزمني المكاني ، بينما تكون خاصة وشخصية اذا كانت مرتبطة بالزمان والمكان .

وكذلك شخصيات القصة تصبح خاصة وفردية اذا تحركت ضمن اطار الزمن المكاني .

لقد تأثر ادب الكلاسيكيين بنظرية المثل الافلاطونية فالصور او المثل هي الحقائق المطلقة وراء المبركات الحسية في العالم الزمني . وهذه الصور تعتبر مجردة من الزمان ثابتة غير متغيرة . ولذا كانت الفرضية الأساسية في حصارنهم بوجه عام أنه لم يحدث شيء ولا يمكن ان يحدث شيء لا يكون معناه الأساسي مستقلا عن الزمن . وهذه النظرية تقاير النظرية التي بدأت في الظهور منذ عصر النهضة والتي تعتبر الزمن لا على أنه بحد من ابعاد العالم الطبيعي وحسب ، بل على أنه ايضا القوة المشكلة للفرد وللتاريخ العام . يقول الناقد اي . م . فورستر ان تصوير الحياة من خلال الزمن هو الشيء الأول الذي اضافته القصة الى الأدب الذي كان اهتمامه السابق منصباً على تصوير الحياة من خلال القيم . ويرى تودروب فراي ان تعالف الزمان مع الرجل الغربي هو العنصر الذي يحدد القصة بالنسبة لغيرها من فنون الأدب .

والمكان هو العنصر الملازم للزمان . كان المكان في ادب الماضي - عصر ما قبل القصة - مبهما سائبا مثل الزمان فسي التراجيديا والرومانس ، فمكان المسألة اي مكان امام القصر او في ساحة

الحاجة الإنسانية الملحة . وبهذا الصراع بين المثل والواقع اعتبرت قصة « دون كيشوت » تصويراً للصراع بين الرومانس التي ازدهرت في عصور الفرسان ومثالياتهم ، والقصة الحديثة التي كان لا بد لها من الظهور لكي تعبر عن الطبقة الجديدة ، المتوسطة ، التي اخذت تطفو على سطح المجتمع وتزاحم نبله الاقطاع والوراثة على مراكزهم المتنازعة ، مستقلة منجزات العلم الحديث ، والكشوف الجغرافية التي يرسر سبل المواصلات واكتشفت قارة جديدة غنية ، والانقلاب الصناعي الذي افاد من نظريات العلم وتطبيقاته ، ومستعينة بالثقافة والادب المصطنع لكي تبرهن على جدارتها بهذه المكانة التي تسعى الى تسنمها . هذه الطبقة هي التي خلق لها هذا الأدب الجديد الذي اطلق عليه النقاد اسم القصة الواقعية ، والذي انتقل في ظروف اجتماعية واقتصادية وفكرية مشابهة الى العالم العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بعد ان امضى ما يقرب من القرن في التجربة والخطأ . فما هي هذه القصة الجديدة وما هي خصائصها التي تميزت بها عن الرومانس ؟

اخذت هذه القصة الجديدة تعني بالعالم الحقيقي ، وتعالج الاشياء التي يضعها الكاتب في مستوى الحقائق في جو قريب من الواقع ليس عسيرا على الحواس ان تدركه ولا على العقل ان يكشفه . اصبح هم الكاتب الجديد ، اذا كانت غايته ان يتلام مع عصره وان يكون ابنا حقيقيا له ان يعنى بتفسير عالم الحقائق بعرض صورة الحياة كما تترأى له وبما يتفق وتجارب الآخرين . ولكي تأسر هذه الصورة العقل وتسبي الحواس ، وتفري بالتصديق ، ينبغي ان تكون صادقة مع ذاتها الى آخر لمسة فيها ، وان تكون اجزاؤها وتفصيلها مشابهة لما يعرفه القارئ الجديد في الحياة ، منسقة مع نظريته الفردية المستقلة الى الحقائق ، تلك النظرة التي كانت نقدية في اساسها ، منحررة من الفرضيات المسبقة ، والمعتقدات السلفية . وقد كانت القصة ، وهي الفن الأدبي المستحدث ، مهية للتعبير عن هذه النظرة الفردية وهذا المنحى الفكري الجديد . فالفنون السابقة كانت تعكس الاتجاه العام لثقافتها وذلك يجعل التزام الطرائق الموروثة عن السلف المقياس الأول للحقيقة . فحبات الملاحم الكلاسيكية وملاحم عصر النهضة مثلا ، كانت تعتمد على التواريخ السابقة او الخرافات ، وكانت خصائص معالجة الكاتب لها تقاس في الاكثر بقواعد مستمدة من النماذج السابقة المعترف بجودتها في هذا الفن . وكذلك كانت المسألة الكلاسيكية الجديدة تستل فاعدها النقدية من كتاب «الشعر» لارسطو واجتهادات الشراح والمعلقين عليه . وتستمد حباتها من الاساطير الاغريقية او التواريخ الاوروبية .

ومحاكمة مسرحية السيد كورني وادانتها لخروجها عن قانون الوحدات الثلاث وعن قواعد الكلاسيكية مشهورة مذكورة . وقد فعل الادباء السابقون ذلك لانهم ، غالبا ، تقبلوا الفرضية التي كانت شائعة في عصرهم ومؤداه ان الطبيعة ، في اساسها ، كاملة لا تتغير ، ولذا فان سجلاتها سواء كانت دينية او اسطورية او تاريخية تكون رصيذا كاملا للتجارب الإنسانية .

اما القصة الحديثة فقد قامت على تحدي هذه الميائيس المفروضة ، وجعلت الصدق بالنسبة الى التجربة الشخصية التي هي دوما خاصة ومتفردة ، فوق كل مقياس اخر . واستمدت حباتها من حياة ابناء الطبقة الوسطى المبارزة في المجتمع ، ورفضت الحبات التقليدية .

وقد كان في التقاليد القصصية السائدة في عصر الرومانس ، اشياء اخرى غير الحكمة ينبغي تغييرها قبل ان تتمكن القصة من تجسيم المفهوم الفردي للواقع ، في اطار من الحرية التي يتيحها لها منهج ديكرت ولوك . كان ينبغي اولا ان يوضع ابطال الحكمة والبيئة التي يتحركون فيها في مجال ادبي جديد : فالحكمة يجب ان يمثلها

المدنية ، وأحداث الرومانس تنفذ بين الامكنة في خطوات واسعة عريضة لا يفرها العقل او منطق الاحتمال الانساني . اما كاتب القصة فقد عني بتصوير البيئة المدنية والطبيعية ، وتعديد الواقع واسماء الشوارع والبيوت ، ووصف الملابس والاناث . والادوات والاشياء .

كل هذه الخصائص الفنية في القصة تؤكد غاية كان يسمى اليها القاص والفيلسوف ، وهي اخراج صورة حقيقية لجساربات الافراد تتفق ومفهوم الفاريه وتجربته الخاصة في الحياة . ولم يكن من المستطاع ان تخرج هذه الصورة في اسلوب الشعر السذي خرجت به الملاحم والباسي والرومانسيات ، ولا في اسلوب النثر المنهق الذي كتبت به المقاطع السردية في بعض الرومانسيات ، كان لا بد لهذا الفن الجديد من اداة جديدة ، ولم تكن هذه الاداة سوى النثر العادي البسيط . يقول الناقد تشارلتن : « اننا نحس الرغبة في قول الشعر عندما تنزع نفوسنا الى التسامي ، فاذا ما اردنا ، مثلا ، ان نطرح عن انفسنا اعباء العيش الدنيوي بكل ما فيه من كلل وملال ، لنصعد بارواحنا الى ذرى التعمد ونشوة المثل بين يدي الله ، فنحن بالترانيم الدينية شعرا . فالشعر بايقاعه الجهيل يكون لنا بمثابة الاجنحة تخفق خلفات متتابعة فتعلو بارواحنا وعقولنا الى اجواز السماء . . واذا ما امتلأت نفس العاشق بحرارة الحب تراه ينفجر في غزل منظوم يتغنى به فيشمره الفناء المنغم الموزون انه قد سما الى اوج لا يسمو اليه في مجرى عيشه المألوف . وقد تكون العلة الحقيقية في ما للشعر على نفوسنا من اثر يصعد بها او يشعرها بالصعود ، شيئا في فطرتنا يجعل النفس تستجيب للوزن والاقاع . فليس من شك في اننا نغتن بسحر النغم في الشعر فتنة نخدعنا عن انفسنا فنقبل كل ما يسوقه الينا الشعر من افكار وصور وعواطف ومشاعر . فمهما يكن ما يقدمه الينا الشعر يصادف منا عقسولا وعيونا وشعورا مدعنة مستسلمة ، متعاونة كلها على استيعابه وقبوله . فمعظم بحور الشعر لها القدرة على هذه الفتنة وهذا السحر الذي تستجيب له نفوسنا على النحو الذي ذكرنا ، فضلا عن انها بفعل ذلك السحر تزيد من ضخامة ما يحمل الشعر من معان . اذن فالشعر صوت ينطق بما هو خارق للمألوف وبما هو اسمى من مجرى الحياة المهود وبالاحساس النادر الذي لا يلم بالانسان الا

هيسات متباعدة ، فهو في الجملة يتحرك في مجال اعلى من مجال الحياة الواقعية . اما النثر فهو ، على نقيض ذلك ، اداة تعبر عن الحياة العارية المألوفة اشائعة ، التي لا غرابة فيها ولا شذوذ ولا سمو . فترانا نباشر اعمالنا بالنثر وننجز شؤون العيش بالنثر ، ففي مقدور النثر ان يعبر عن كل هذه الاشياء تعبيرا ادق واوفى مما يستطيع الشعر . واذا فطبيعة النثر من ناحية ، وما جرت به العادة الواف السنين من ناحية اخرى ، جعلت هذا النوع من التعبير مرتبطا في الهاننا بما هو عادي واقعي مألوف .

ولما كانت القصة الجديدة تعنى بالعادي والواقعي والمألوف ، وتعالج الاشياء التي يصفها الكاتب في مستوى الحقائق في عالم قريب من الواقع الذي تتركه الحواس ويكتشفه العقل ، مما لا يواد له ان يكون بكرا جديدا مهما تكن قدرة الكاتب على الاختراع والابداع . فهل يمكن تصوير هذا العالم بالشعر ؟ ان الشعر ، كما بين تشارلتن ، ليس من هذا العالم ، بل هو ينتمي الى عالم الروح ، وهو لا يعالج الاشياء المؤقتة العابرة ، بل الاشياء المنسمة بميسم الخلود ، تلك الاشياء التي تنتمي الى عالم الافكار الدائمة والحاتق المطلقة . وهكذا فان الشعر ابداعي خلال بينما القصة في اساسها نقدية تحليلية . الحياة تمتد بتجاربها وراء الشاعر لتجرح خياله وتمده بالصور والتشبيهات ، ولكنها تنبسط امام القاص ليرسح فيها بصره وحواسه وفكره ، ويجعلها موضوع اهتمامه وتطلعه وامله . وعندما يعمد الى تصويرها فان غابته من وراء ذلك ان يبرز المعنى الذي تنطوي عليه او يراه هو فيها . اما الشاعر فقد يكشف وقد يتمعن ، وقد لا يعلم المعرفة الوثيقة والتجربة الحية الاصيلية ، ولكنه يحول عينيه عن كل ذلك ، ليعبر عما تظفل في اغوار نفسه البعيدة . والشعر بنقد الحياة ، ولكنه نقد غير مباشر بمعنى ان العالم المثالي الذي يرسمه لنا يضع بين ايدينا مقياسا لا يسعنا الا ان نقيس الحياة به ، وان نحكم عليها وفقا له . فالافكار المثالية جميعا نقد للحياة ، وان كان متانيا بطريقة غير مباشرة ، اما القصة فهي نقد مباشر متعمد للحياة وتفسير لما خفي من جوانبها بالمعنى السذي قصده ارنولد حين قال : الادب تفسير للحياة .

محمد يوسف نجم

بيروت

في الاسواق

## فكاهيات بلباس الهيدان

للشاعر

الياس لحود

منشورات دار الآداب